الدولة العثمانية

من خلال كتابات المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية

«عرض ونقد وتحليل»

د. أماني جعفر الغازي

١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م

ⓒ أماني جعفر الغازي، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغازي، أماني جعفر

الدولة العثمانية من خلال كتابات المستشرقين في دائرة المعارف (عرض ونقد وتحليل). / أماني جعفر الغازي - جدة، ١٤٣٣هـ

٧٩٦ ص، ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٧-٩٩٣٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- الحضارة الإسلامية - تاريخ ٢- الدولة الإسلامية - تاريخ

أ. العنوان

ديوي ٩٥٣,٠٩ ١٤٣٣/٤٠٧٤

رقم الإيداع: ١٤٣٣/٤٠٧٤

ردمك: ٧-٩٩٣٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

الأعمال الثقافية

الإخراج والتنفيذ: الأعمال الثقافية

جدة: ٦٧٦٤١٦١ - ٠٥٥٢٢٨٣٣٩٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إهداء خاص
إلى السلاطين العثمانيين المجاهدين في سبيل الله،
الذين دفعوا حياتهم ثمناً لإعلاء الإسلام
والدفاع عن أراضيه ضد القوى الاستعمارية

أماني الغازي

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيد المرسلين والهادي الأمين وأشرف خلق العالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1]

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2]

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعهُ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى الضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعهُ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا» (رواه مسلم).[3]

عندما ظهر الهلال العثماني في سماء الشرق الإسلامي، كان العثمانيون قد صدموا أوروبا أكبر صدمة تلقتها على مر تاريخها عندما سقطت القسطنطينية في قبضتهم وكان للعثمانيين تجربة رائدة في حركة الفتوحات الإسلامية في أوروبا، حيث عملوا على تطبيق المبدأ القرآني بنشر الإسلام، فأقاموا مراكز مهمة في اليونان، وبلغاريا، والصرب، وجنوب شرق أوروبا، ووسطها، والقرم، وبلاد المجر. أما على الصعيد الشرقي فقد دخلوا وضموا مصر، والشام، والحجاز تحت الحكم العثماني، وامتدت حدود الدولة العثمانية من الدانوب حتى الخليج العربي، ومن أراضي آسيا الصغرى إلى مصر، فوطئت جيوشها أقاليم لم تخضع قط لحكم المسلمين من قبل، وأحرزت باسم الإسلام انتصارات خاطفة وباهرة، فضمت دولاً أوروبية، وبذلك وصلت حدودها إلى فينا. وأدركت أوروبا حقيقة دور العثمانيين في الدفاع عن الدين، وعن بلاد المسلمين، لا يفرقهم وطن، ولا لون ولا جيش. وتغير ميزان القوى

---

(١) سورة آل عمران: آية ٦٤.

(٢) سورة الزمر: آية ٢٢.

(٣) صحيح مسلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ج١٣، ص ١٦٤٠.

بخسارة أوروبا لسيادتها العسكرية التي بدأت منذ الحملات الصليبية حتى ظهور الهلال العثماني، وانقلاب الحال على أيدي العثمانيين الذين توسعوا في الفتوحات وأرسلوا الجيوش، وصارت أوروبا تعمل لهم ألف حساب؛ ففرضوا الحماية على العالم الإسلامي تحت رايتهم، وبدأوا في صد الخطر الاستعماري عنه. وهنا يكمن السبب الرئيس للعداء؛ لأن أوروبا ظلت في حالة حروب صليبية مستمرة.

ولتاريخ الدولة العثمانية أهمية خاصة، تكمن هذه الأهمية في كونها الدولة الإسلامية الكبرى في التاريخ الحديث التي قامت في أساسها على الشريعة الإسلامية، مما أكسبها قوة وتماسك حتى في عصر ضعفها حملت الإسلام إلى أوروبا، ودقت به على أبوابها، ففزعت الحكومات والشعوب الأوروبية من هذه الدولة الإسلامية التي هاجمتها في عقر دارها، وبعد نهاية القرن ١٠هـ / ١٦م، بدأت أوروبا تفكر جدياً، وتخطط لإيقاف هذا الزحف الإسلامي؛ إذ إنَّ للانتصارات العثمانية الإسلامية بلا شك تأثير على سياستها، فكان للعامل الديني أثر في فزع أوروبا، وجعلها تتخبط في القهر وحب الانتقام، وزاد من فزعهم أيضاً انتشار الإسلام في أجزاء من أوروبا، مما أدى إلى وقوفها ونهوضها ضد الدولة العثمانية بكل الطرق الحربية والفكرية، ولم يعد همها إلا استرداد ما أخذه العثمانيون منها بل وتفتحت شهيتها على مناطق جديدة، فعقدت المؤامرات والتحالفات الصليبية والتكتلات الحربية ضدها بمساندة الكنيسة وبابا روما. ويصدق فيهم قول الله: ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[1]

ثم إنَّ اهتمام العثمانيين بنشر الإسلام جعل كل أوروبا برجال الدين فيها والسياسيين يقفون ضد هذا الانتشار، فعملوا على تطويق العالم الإسلامي بأكمله، وإخراج الإسلام من المناطق التي انتشر فيها، مثل رودس، اليونان، وبلاد المجر، وغيرها.

وتابعت أوروبا عدوانها على الدولة العثمانية المسلمة حتى تحقق لها ما تريد في بداية القرن ١٤هـ / ٢٠م، حيث كُسرت شوكة القوة العثمانية، وتدفق الاستعمار بعد هذا الإنكسار كالسيول الجارفة تقضي على الأخضر واليابس، وتلتهم البلاد الإسلامية بضراوة وقسوة.

هذا الانتقام جاء من أوروبا؛ لأنَّ الدولة العثمانية عوضاً عن نشرها للإسلام، كشفت عن

---

(١) سورة البروج: آية ٨.

وجه أوروبا القاتم والمخزي أثناء استعمارها للبلاد الأخرى. وذلك من خلال سياسة التسامح الديني التي اتبعتها الدولة العثمانية، وكانت سبباً في نشر الإسلام، وترحيب أهالي البلاد بالحكم العثماني في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تبني حضاراتها على امتصاص خيرات ودماء الشعوب المستعمرة.

كلّ هذه العوامل جعلت أوروبا تفكر في كيفية الكيد للدولة العثمانية والقضاء عليها، إلى جانب المواجهة العسكرية، وخوض المعارك الدامية، لذا لجأت إلى أسلوب ومنهجية قديمة في مواجهة الخطر الإسلامي تمثل في الاستشراق.

حقيقة أن الاستشراق نشأ قبل ظهور الدولة العثمانية، إلا أنهّ لمع بشكل قوي وظاهر وحضور واضح في عهد الدولة العثمانية، خاصة بعد فتح القسطنطينية وهز عروش المسيحية. ومن أجل ذلك لجأت أوروبا إلى الفكر، والأقلام الحاقدة التي تسابقت في صراع محموم لصنع الافتراءات حول الدولة العثمانية سواء في رموزها الإسلامية أم تصوير حكمها في الولايات العربية بصورٍ قاتمة مظلمة، يتخللها الاستبداد والظلم والقهر. ومن تلك الصور: مذابح الرعايا، إعدام المثقفين، عزل الولايات العربية عن الحضارة والتقدم، وما إلى ذلك من التهم.

وتسابق المستشرقون في نسج الافتراءات حول فتوحات الدولة العثمانية في الأقاليم التي لم يدخلها الإسلام يوماً.ولذلك جاء تاريخها متأثراً في كثير من الحالات بروح العداء للإسلام، فانبرت أقلام المستشرقين لها، حيث اعتبروا ذلك التاريخ مادة خصبة ثرية للكتابة عنها وتشويه أمجادها وماضيها، وذلك عندما عجزوا عن غزوها عسكرياً، فلجأوا لغزوها فكرياً، ومن ضمن وسائل الغزو الفكري تلك الأقلام الاستشراقية التي شوهت التاريخ الإسلامي.

ولحبك خيوط المؤامرة لابد من إيجاد مساحة حرة لهذه الأقلام تبث من خلالها أفكارها المشوهة وافتراءاتها، ليس على الدولة العثمانية فقط، وإنما على كل ما هو إسلامي. هذه المساحة ترتدي لباس العلم والبحث العلمي، فكانت المؤلفات الاستشراقية، ومن أبرزها دائرة المعارف الإسلامية التي كانت مناسبة لأداء هذا الدور ضد الإسلام والمسلمين.

فدائرة المعارف الإسلامية موسوعة ألفها أساطين المستشرقين في بداية ق ١٤هـ/ ٢٠م على هيئة أبحاث منفصلة مرتبة فيها المواد حسب الحروف الهجائية، وصدرت في عدة طبعات،

تُرجم منها طبعتان إلى اللغة العربية، واحتوت الموسوعة على تراجم لكثير من الشخصيات المشهورة في التاريخ، وعلوم الدين والنظم والقبائل والمواقع، كتب فيها ٤٨٦ مستشرق تقريبًا في مختلف فروع المعرفة.

خاض المستشرقون فيها صولات وجولات؛ لاختلاق أحداث وهمية مدعمة بمصادر خيالية، والكتابة عن أحداث تَمَّت بالفعل مع إضافة الكثير من التشويه والكذب والافتراء، والبحث الدائم عن مواضع الضعف في التاريخ والحضارة الإسلامية، وإبرازها لأجل غاية سياسية أو دينية، من شأن ذلك أن يزعزع إيمان وثقة القارئ بكل ما هو إسلامي، وبإسلامية وعدل الدولة العثمانية على الخصوص.

وقد لفت نظري، وشد انتباهي ما كُتب في هذه الموسوعة عندما كنت أدرس في السنة المنهجية مرحلة الدكتوراه، حيث وقفت على أعمال المستشرقين، ومنهجهم في تشويه التاريخ الإسلامي عامة، والدولة العثمانية خاصة، فحرصت على التخصص في دراسة الاستشراق؛ لكشف شبهاتهم، والرد عليهم بما في كتب المسلمين من ثروة علمية تصُب في هذا الاتجاه.

ومن هنا جاءت أهمية الدراسة؛ إذ تجمع خيوط كتابات المستشرقين عن الدولة العثمانية في دائرة المعارف الإسلامية، وآرائهم المغرضة من عدة أوجه، بداية بقيام الدولة العثمانية، وسلاطين عصر القوة الذين أثَّروا بشكل مباشر في تاريخ أوروبا، وسلاطين عصر الضعف والافتراءات التي لحقت بهم، وأخيراً تعرض أو تقدم أمثلة عن النظم الإسلامية وتعدياتهم عليها.

والدراسة تلقي الضوء على خلفيات وآفاق كتاباتهم غير المنصفة في دائرة المعارف الإسلامية، والتي اتخذت أسلوباً جديداً بدلاً من التشويه المباشر، ويظهر بوضوح في الأسلوب الرقيق الناعم الذي يشكك في الحقائق عن بعد عند تناوله لموضوعات الدولة العثمانية بشكل غير معلن، لا سيما عند تناول سير السلاطين العثمانيين خاصة.

ولتكون هذه الدراسة جديرة بالاهتمام سأحاول – بعون الله– تفنيد افتراءات المستشرقين على الدولة العثمانية من خلال دحض آرائهم بالأدلة والبراهين الدامغة ،والمدعَّمة بالمصادر الموثوقة والصادقة في تناول تاريخ الدولة العثمانية، للوقوف على الحقائق التاريخية من خلال الوثائق التي تثبت عدم صدق ادعاءاتهم الواردة في دائرة المعارف الإسلامية.

وأحسب أنَّ هذه الدراسة هي الأولى من نوعها التي تتناول تاريخ الدولة العثمانية من

خلال دائرة المعارف الإسلامية، وتلقي الضوء عليها والأكاذيب التي احتوتها بين صفحاتها، إضافة إلى أنني أتوقع أنها أول دراسة علمية تناقش الافتراءات والأخطاء التي أُلصقت بتاريخ الدولة العثمانية.

ولا شك أن دائرة المعارف الإسلامية جعلت كثيراً من المؤرخين يصدرون أحكامًا جائرة، وسم بها التاريخ العثماني، وفيها كثير من الجور والمغالاة، رغم أن الدولة العثمانية قدمت كثيراً من الخدمات الجليلة للأمة الإسلامية؛ ولذا لم يكن تاريخها شراً كله، ولا خيراً كله، فهي دولة إسلامية مثل بقية الدول الإسلامية، وسلاطينها بشر يصيبون ويخطئون، وهذه سنة الحياة.

وتعتبر دائرة المعارف الإسلامية وعاءًا كبيراً حوى أكثر آراء المستشرقين عن الإسلام، وبالتالي عن العثمانيين، وهي في الواقع ترديد لآراء المستشرقين اليهود والنصارى في قوالب مختلفة وجديدة.

لكن هذا لا يعني أن دائرة المعارف الإسلامية لم تقدم شيئًا من الفائدة للثقافة الإسلامية، فمن خلالها عرف الناس في أوروبا عن ماهية الإسلام، وتاريخ رموزه وكفاءتهم وإن كان هناك تشويه لذلك كله، قد أظهروا تعاليم الإسلام في بعض المواقع دون تحريف.

لكن خطورة دائرة المعارف تلك تكمن في انجراف أغلب المؤرخين العرب بشتى انتماءاتهم واتجاهاتهم والمؤرخين الأتراك أنفسهم – إلا من رحم ربي – وراء آرائهم الخاطئة، وبذلك سعوا إلى إدانة فترة كبيرة جداً من تاريخهم، مرتبطة بالإسلام وبهم وبتاريخنا في الشرق الإسلاميّ.

والمؤرخون العرب في ذلك ساروا في ركب الاتجاه المهاجم لفترة الدولة العثمانية مدفوعين بانبهارهم بالحضارة الأوروبية، والتبعية البحثية لمدارس التاريخ الغربي على اعتبار أنها الأفضل مكانةً والأكثر تقدماً، والأمر على العكس تماماً؛ لأن المدارس الغربية ليس لها أيّ منهجية علمية ثابتة وتسير وفق أهداف معينة، وإنما تسير وفق هواها وأغراضها. ومدفوعين أيضاً بحب تقليد المؤرخين الغربيين دون تحمل المشقة والعناء للتأكد من صحة المعلومات التي يرددها المستشرقون، والأخذ بها كأنَّما حدثت فعلاً، بل والتمسك بها وعدم التنازل عنها.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[1]

ومن منطلق الآية الكريمة اخترت تلك القضية لتكون عنواناً وموضوعاً لأطروحتي لمرحلة الدكتوراه والتي نوقشت بجامعة أم القرى كلية الشريعة، ومن الأسباب التي دعتني إلى إختيار هذا الموضوع ما يلي:

١- وجدت نفسي مدفوعة لأن أقول كلمة حق في دائرة المعارف الإسلامية؛ للحذر من الأخذ منها، خاصة وأن أكثر كتابها تعود أصولهم إلى جذور يهودية، أو لهم ميول صهيونية، وأن الحقبة التاريخية التي كتبت فيها هذه الموسوعة هي الحقبة التي تكالب فيها الاستعمار على البلاد العربية.

٢- وقد درست مادة (حركة الاستشراق) مع مشرفتي في السنة المنهجية، ووقفت على أعمالهم المشوهة للتاريخ الإسلامي، ولا سيما التاريخ العثماني، فحرصت على التخصص في الاستشراق لدَحض آرائهم وإظهار عدم صحتها وصدقها، إضافة إلى رد الافتراء عن الدولة العثمانية، التي لها واجبُ علينا فقد قامت بحماية البلاد الإسلامية والإسلام لستة قرون، فلتاريخها منا كلمة حق وإنصاف، حيث لم ينصفها إلا القليل، مع الأخذ في الاعتبار أنه تخصص لا يزال البحث فيه بكراً وغيرَ مطروق. ومن واجب المؤرخين أصحاب المنظور الإسلامي إعادة النظر في أهم جوانب تاريخ الدولة العثمانية، أملاً في التئام تلك الشروخ والفجوات التي كانت نتاج صياغة المستشرقين للتاريخ العثماني الإسلامي.

٣- اختياري لهذا الموضوع هو تحد للاستشراق والمستشرقين، لأن طريقة عرضهم للمعلومة،وتعصبهم الملحوظ حفّز لدي روح الدفاع عن الإسلام، وأصالة شخصياته المميزة، الأمر الذي دفعني لاستخدام البحث العلمي في تحليل ونقد كتاباتهم بشكل موضوعي، ليس لكشف زيف أقوالهم فقط، وإنما لإصلاح القائم والاحتراس منه، وإثبات أن عقلية المسلمين واعية لا تصدق كل ما يقال لها دون إخضاعه للتحليل والمنطق ومن منطلق التخصص أردت تصحيح صورة الدولة العثمانية المفترى عليها.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٧٠، ٧١.

٤- حاجة المكتبة التاريخية الإسلامية العثمانية للكتب المحايدة التي تؤرخ لهذه الفترة من مصادر موثوقة لا يشوبها شائبة، وتذكر الأحداث التاريخية بصدق وحقيقة واضحة.

٥- إن دائرة المعارف الإسلامية أصبحت -للأسف- مرجعاً لكثير من الباحثين والباحثات، ومعلوماتها في نظرهم لا تقبل الشك، وقد وجدت أن دائرة المعارف تلك لا تخلو منها أي مكتبة عامة داخل البلاد الإسلامية أو خارجها، حتى إنها متوفرة في المكتبات الأوروبية، ويعدونها حجة فيما تتكلم عنه، ولذا أردت أن أقول كلمة حق في هذه الموسوعة؛ للحذر عند الأخذ منها، ولا يمنع ذلك وجود كثير من المعلومات الصادقة. ويعتبر لها الأسبقية فيها.

٦- على الرغم من تعدد مؤلفيها، واختلاف أهوائهم الشخصية، وأهداف كل واحد منهم، إلا أن الأهداف الأساسية واحدة، وهي:

أ- زعزعة ثقة المسلمين بدينهم الإسلامي.

ب- تشويه الإسلام لصد الغربيين عنه.

ج- تهيئة المعلومات اللازمة والأجواء؛ لخدمة الاستعمار والمنصرين.

د- تهيئة العقول المسلمة لاستقبال آراء الغرب وتقاليدهم وقوانينهم عوضاً عن الشريعة الإسلامية.

٧- هذه الدائرة الإسلامية رغم ما قيل عنها من مزايا،إلا أنها مليئة بالأخطاء التي أفقدتها قدراً كبيراً من فائدتها بسبب التشويه المتعمد، مع الوقوع في أخطاء كثيرة لجهل الكثيرين من كتابها باللغة العربية، وبحقائق الإسلام ونظمه، فوجدت أنه من الواجب بيان ذلك حتى لا يظهر أن ما كتبوه هو الصواب بإقرار المسلمين وسكوتهم على ذلك.

٨- إن وفرة معلومات هذه الدائرة الإسلامية حيث جمعت بين جنباتها تخصصات مختلفة، وتم صياغة معلوماتها بأسلوب سهل يستفيد منه الجميع، فضلاً عن سهولة الرجوع إليها لحسن ترتيبها، واغترار بعض الناس بأسماء كتابها، وقبول كل ما كتب فيها، حيث أطلق عليها لفظ «إسلامية» أي أنها مرجع لكل العلوم الإسلامية، هذه العوامل مجتمعة جعلتني أفكر ملياً في اختيارها موضوعًا للدراسة.

والحق يقال إن علماء الأزهر وأساتذة دار العلوم والجامعات المصرية أسدوا للترجمة العربية خدمات جليلة بتعليقاتهم، وإبداء ملحوظاتهم على الأخطاء التي كتبت عن الشريعة الإسلامية، ولكن هذه التعليقات لم تخرج عن حيز الموضوعات الخاصة بالعقيدة الإسلامية، وأحكام الشريعة، وبعض المفاهيم الخاصة بالإسلام. ولم يقدموا أيّ تعليق على الموضوعات الخاصة بالتاريخ الإسلامي، وتاريخ الدولة العثمانية والذي احتوى على كثير من الأخطاء والشبهات، وذلك للحط من قدر الدولة العثمانية، ولم يعلق أيّ مُترجم على مدى صحة المعلومات التي أوردوها، إضافة إلى أن المترجمين والمستشرقين – على حد سواء – اعتمدوا على مصادر ومراجع أجنبية فقط، ولم يُدخلوا مصادر إسلامية وعربية إلا فيما ندر.

وقد حرصت في هذه الدراسة على استقاء المادة العلمية من منابعها ومصادرها الأصلية؛ إمعاناً في أصالة المعلومة، حيث تمكنت – بفضل من الله وتوفيقه – من القيام برحلتين علميتين إلى إستانبول ،قمت خلالهما بجمع المصادر والمراجع اللازمة للدراسة، وزيارة أرشيف رئاسة الوزراء واستخراج الوثائق ذات الصلة الوثيقة بالموضوع، كما زرت أرشيف طوب قابي سراي، واستفدت من الوثائق والفرمانات والدفاتر الموجودة في الأرشيف، وتمت ترجمة هذه الوثائق خصيصاً للاستفادة منها في الدراسة.

كما جمعت عدة مخطوطات عثمانية قديمة أسهمت بشكل كبير في إثراء معلومات الدراسة. إضافة إلى عدد من دوائر المعارف التركية والمعاجم ذات الصلة بالموضوع، واعتمدت في أغلب المباحث التي تتناول النقد والتحليل لمواد الدائرة الإسلامية على مصادر عثمانية ومراجع تركية؛ وذلك لوجود المعلومات الصادقة والدقيقة والحيادية فيها، وأغلبها عبّرت عن وجهة نظر إسلامية؛ لأن أغلب المصادر كانت معاصرة للأحداث، فأخضعتها للدراسة والتحليل للخروج بمعلومات أحسب أنها ستخدم الدراسة.

عوضاً عن المصادر العربية ذات الصلة بالموضوع مثل تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد المحامي، وتاريخ الدولة العثمانية ليلمازا وزتونا، وتاريخ الدولة العثمانية وحقائق الأخبار عن دول البحار لإسماعيل سرهنك، وغيرهم من المصادر التي أثرت معلومات الدراسة.

أما المراجع العربية فلا يمكن إنكار فضلها على الدراسة، سواء ما كتب عن تاريخ الدولة

العثمانية بصفة عامة، ولكن بطريقة حيادية موثوقة. أم ما كتب عن الاستشراق ومواجهته من الناحية الشرعية.

ولكن يعاب على بعض المراجع وخاصة المستشرقون لنجيب عقيقي أنه لم يذكر المراجع التي رجع إليها وترك أغلب صفحات كتابه دون هوامش وبذلك يفوت على القارئ الاستفادة من المراجع والعودة لها.

على الرغم من أن كثيراً من المؤرخين والمفكرين كتبوا عن الدولة العثمانية إلا أن أغلب كتاباتهم جاءت مكررة ولم تأت بجديد، وينقصها الدقة في أكثر الأحيان، خاصة أنهم اعتمدوا على ما كتبه من سبقهم من المؤرخين أو ما ترجم منذ مدة طويلة، ولم يتحمل المؤرخ عناء البحث عن معلومات جديدة، أو إعادة الترجمة لتجديد المعلومات وإنما اكتفى بالنقل عن السابقين فقط.

أما عن كتب المستشرقين فلم استعن بأي منها؛ وذلك لوجود الآراء الفاسدة نفسها التي جاءت في دائرة المعارف الإسلامية على الأغلب، وأما الحقائق التي ذكروها فقد تناولتها أو عرضتها الكتب التركية والعربية.

ومن أهم الصعوبات التي واجهتني ندرة المعلومة الصحيحة التي تتسم بالوضوح والدّقة، وسيتضح ذلك من خلال صفحات الدراسة، إذ اعتمدت في بعض المباحث على مصادر ومراجع محدودة جداً؛ وذلك لعدم توفر المعلومة المقنعة في كتب أخرى،مما عرقل كثيراً من مسيرة الدراسة نظراً لتشابه الهوامش إلى حد كبير. وذلك لأن بعض الموضوعات لم تتناولها كتب التاريخ العثماني، أو كتب الاستشراق إلا بإشارات عابرة، ومقتطفات صغيرة مما شكل ندرة في وجود المعلومة، مثل دور الكنيسة في دعم حركة الاستشراق، وتنامي كراسي الاستشراق في جامعات أوروبا على إثر ظهور الدولة العثمانية، إضافة إلى دور اليهود في الحركة الاستشراقية، وتوجيه الكتابة عن التاريخ العثماني.

ومن أكثر الصعوبات تأثيراً على مسيرة الدراسة عدم إتقاني للغة التركية مما سبب لي عائق عدم اختيار الوثائق والحصول عليها فاضطررت للأنتظار لشهور طويلة حتى وصول الترجمة من الخارج، حيث تمت في إستانبول والقاهرة؛ لعدم وجود مترجمين متخصصين في المملكة. كما أن عدم توفر الكتب داخل المملكة جعلني أتحمل مشقة السفر إلى الخارج لإحضار الكتب

المطلوبة، وذلك أن المعلومات المحايدة ليست متوفرة في كل الكتب وإنما في القليل جداً منها.

أضف إلى ذلك صعوبة الحصول على الوثائق من أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول نفسها، فالأمر يتطلب إجراءات طويلة تمتد لعدة شهور، تبدأ من القنصلية التركية في جدة، واستخراج الإذن، إضافة إلى صعوبة إجراءات الدخول إلى أرشيف طوب قابي سراي؛ لأن له إجراءات مختلفة وإذن آخر، مما زاد الأمر تعقيداً.

عوضاً عن غموض بعض مواد الدائرة الإسلامية، وتداخل معلوماتها بشكل كبير، مما زاد من صعوبة تفنيد المعلومة، ليتم نقضها وكذلك عدم الالتزام بالتسلسل التاريخي للأحداث، وخير مثال على ذلك مادة الترك التي قدمها كرامرز، ومادة شيخ الإسلام، وهي أيضاً من عمل كرامرز ،وهذه السمة غلبت عليه في أكثر المواد التي كتب عنها في الدائرة الإسلامية.

وأخيراً فإن كثرة أسماء الشخصيات والمواقع كانت ستشكل عبئاً ثقيلاً على صفحات الدراسة لو تمت الترجمة لهم جميعاً في الهوامش، لهذا اكتفت الدراسة بترجمة الأسماء والمواقع المهمة فقط.

أما عن المنهجية والطريقة التي اتبعتها الدراسة في نقض آراء المستشرقين في مواد دائرة المعارف الإسلامية، فتمثلت في تقسيم الدراسة للآراء التي ترد في المادة، والمراد نقضها على هيئة نقاط يشار إليها أولاً وثانياً... ثم يتم نقض كل نقطة حسب ترتيب المادة، مع ذكر النص كاملاً لتلك المادة.

قد يلاحظ المطلع على الدراسة بأن هناك عدم إلتزام بالتسلسل التاريخي للحدث في المادة المقدمة عن أي سلطان، مثال على ذلك مادة السلطان عبدالحميد الثاني، حيث قدمت المادة ولادته ووفاته ثم أهم الأحداث في عهده، وذلك مخل بالسياق التاريخي لأن الوفاة لابد وأن تأتي في نهاية السيرة الذاتية للسلطان مما اضطرني الى السير على نفس المنهجية التي سردت بها دائرة المعارف الإسلامية السير الذاتية للسلاطين حتى يسهل على القارئ تتبع وتحليل النقد.

ويجب التنويه إلى أن هامش دائرة المعارف الإسلامية المترجمة يكتب بالعربية، أما هامش دائرة المعارف الإسلامية الغير مترجمة والتي ترجمت موادها للدراسة فقط تكتب بالإنجليزية.

وتمثل هذه الدراسة إعادة لكتابة التاريخ العثماني من منظور إسلامي، في عصر القوة بعكس ما هو متعارف عليه من الرجوع إلى كتب مستشرقين أوروبيين، وذلك بالرجوع إلى وثائق عثمانية ومخطوطات قديمة، بالإضافة إلى كتب عثمانية و كتب تركية، وهي في الواقع أكثر قربا للحدث وإدراكاً لجوانبه. وليست كتاباتي هنا عبارة عن نقد وتحليل فقط للمادة العلمية.

فمن الأهمية بمكان أن توجد كتب صادقة تلقي الضوء على عصري القوة والضعف في الدولة العثمانية بمصداقية وحيادية وكان ذلك هدفي من اختياري لهذا الموضوع.

وفيما يتعلق بالخطة التي سارت عليها الدراسة فهي تتضمن تمهيداً وأربعة فصول، إضافة إلى الخاتمة والملاحق وثبت المصادر والمراجع.

وقد تضمن التمهيد شرح منهجية كتابة المستشرقين للتاريخ الإسلامي بصفة عامة قبل العهد العثماني، بدءًا بالسيرة النبوية الشريفة والصحابة ووصولاً إلى الدول الإسلامية عامة.

وناقش الفصل الأول أثر قيام الدولة العثمانية في ازدياد الاستشراق من خلال زيادة أعداد كراسي الاستشراق في الجامعات الأوروبية، وبالتالي زيادة أعداد الخريجين منها الذين كان لهم الدور الأكبر في قيادة الفكر الاستشراقي في الكتابة عن التاريخ العثماني. وأدَّى إنشاء هذه الكراسي إلى زيادة مراكز الاستشراق في الجامعات الأوروبية، وتأسيس وإصدار العديد من المجلات التي تخدم أفكارهم وتروج لأبحاثهم.

وتطرق هذا الفصل إلى دور الكنيسة والبابوية في تشجيع حركة الاستشراق، وما تبعه من دعم مادي ومعنوي على جميع الأصعدة، حيث رصدت الميزانيات الضخمة لدعم الكتابة ضد كل ما هو إسلامي، وذلك بهدف التغلب على الإسلام وتعويض خسارة الحروب الصليبية.

وناقش هذا الفصل ردود فعل أوروبا على الفتوحات العثمانية، وتجسدت في الدعوة لتكوين الأحلاف الصليبية ضد الدولة العثمانية، كان للبابوية والكنيسة دور كبير فيها، بالإضافة إلى ترأسها لهذه الأحلاف بدعوة دينية.

و أختتم هذا الفصل بسياسة التسامح الديني التي كان لها الأثر الأكبر لدعم حركة الاستشراق ضد المسلمين؛ وذلك لأنها فتحت المجال والأبواب أمام المستشرقين واليهود ليتوغلوا في الأراضي العثمانية، مما أعطاهم الحرية في الكتابة عن الدولة العثمانية، بل والعمل على بث الفتن داخل أراضيها.

والفصل الثاني ركزت الدراسة فيه على تاريخ دائرة المعارف الإسلامية، فتناول التعريف بالدائرة، وتاريخ طباعتها، إضافة إلى التعريف بالترجمات التي انبثقت من النسخة الأصلية، عوضاً عن توضيح عدد الطبعات المتوفر منها حالياً، واحتوى على أبرز الأقوال حول الدائرة الإسلامية، والتعريف بأهم مُترجميها.ثم تطرق هذا الفصل أيضاً إلى التعريف بالمستشرقين الذين تناولت الدراسة موادهم التي دارت حول تاريخ الدولة العثمانية وسلاطينها، واحتوى هذا التعريف على سمات أسلوبهم، وأفكارهم وأهم أعمالهم ومؤلفاتهم.

وأخيراً اهتم هذا الفصل بدور اليهود في توجيه الكتابة عن التاريخ العثماني، والأسلوب الذي اتبعوه في ذلك من وسائل وخطوات للوصول إلى الصورة التي أرادوها لتاريخ الدولة العثمانية، مستغلين في ذلك الأوضاع التي نالوها فيها، وسيطرتهم على المصارف والأمور المالية، إضافة إلى تدخلهم في الشؤون السياسية والاقتصادية.

واختص الفصل الثالث بمناقشة رؤية المستشرقين عن بعض سلاطين الدولة العثمانية، ومعالجة أسباب قيامها، وسلاطين التأسيس مروراً بسلاطين العصر الذهبي، أمثال محمد الفاتح، سليم الأول، سليمان القانوني، وانتهاءً بسلاطين عصر الضعف أمثال سليم الثالث، عبد الحميد الثاني، عبد العزيز، محمد وحيد الدين، عبد المجيد الثاني، وذلك من خلال مناقشة آرائهم وافتراءاتهم، والرد عليها من الوثائق والمصادر العثمانية والتركية الحديثة الموثوقة، وهذا الرد يوضح إسلامية الدولة العثمانية في المقام الأول. وفي نهاية كل فصل استخلصت الدراسة عدة نتائج مهمة تلقي الضوء على عدم صدق معلوماتهم التي أوردوها.

والفصل الرابع ،يعالج ويناقش رؤية المستشرقين عن النظم العثمانية، وقد أخذت الدراسة أمثلة على بعض النظم العثمانية مثل نظام الإنكشارية، وذلك للرد على قضية ضريبة الغلمان والاتهامات التي وجهت نحو الدولة العثمانية في هذا الأمر. تناول الفصل كذلك نظام الحريم الذي يكاد يكون مجهولاً للمؤرخين والمستشرقين على حد سواء ،ومع ذلك خاضوا فيه من خلال شخصيات مهمة في الحريم، أمثال خرّم سلطان، وماه بيكر كوسم، بواقع خيالهم المريض، وحياة النساء في قصور أوروبا، وإلقاء الشبهات والإفتراءات حول نظام الحريم، بل

صياغة القصص الخيالية عنهن دون دراية ،مما يؤدي إلى خروج الحريم بصورة مخالفة عن الواقع تمامًا، وقد عالجت الدراسة في هذا المبحث الافتراءات حولهن، ومحاولة نقل النمط الذي كان سائداً في حياتهن.

وأخيراً تطرق الفصل للنظم الشرعية من خلال نظام شيخ الإسلام أنموذجًا وناقش آراءهم حول منصبه، والتهم التي وجهت إلى شخصياتهم، والرد عليها.

ويختتم كل فصل بعدد من النتائج التي توصلت إليها. وفي الخاتمة خرجت الدراسة بعدة توصيات تتأمل من خلالها الباحثة أن تصل بالقارئ إلى الصورة الحقيقية للدولة العثمانية، بعيداً عن افتراءات المستشرقين، وذلك من خلال نتائج، وحقائق تاريخية ثابتة غفل عنها التاريخ، وترك المجال مفتوحًا لأقلام حاقدة، تصوغ تاريخ دولة من أكثر الدول الإسلامية خدمةً للإسلام والمسلمين والعالم الإسلامي.

وإذا كان العهد العثماني قد مضى وانقضى، فإن واجب الإنصاف يقتضي أن نزيل من الأذهان التهم المغرضة التي أُلصقت بالتاريخ الإسلامي.

إن الحكم على دولة أمتدّ عمرها نحو ستة قرون من الزمان يقتضي آفاقاً أبعد، وتفاصيل أشمل.

وآخرًا: أود أن أشير إلى أن ما قمت به من عمل هو محاولة علمية لطالبة علم مبتدئة في مشوار البحث العلمي، فإن أصبت فيما قمت به فهو توفيق من الله تعالى وإن أخطأت فمن نفسي، فأستغفر الله سبحانه وتعالى من الخطأ، وجّل من لا يخطئ.

وإنني بعد هذا الجهد أشكر الله سبحانه وتعالى أن وفقني للقيام بهذا العمل. ومن باب الوفاء والتقدير أشكر كل من له علاقة بإنجاز هذا الجهد، وأبدأ بوالداي الكريمين فلهما الشكر والتقدير، لتشجيعهما المتواصل باستكمال دراستي وكرمهما الدائم معي، ودعائهما المتواصل لي بالتوفيق والهداية، ودعمهما المستمر الذي لا حدود له.

والشكر موصول إلى أستاذتي المشرفة سعادة الأستاذة الدكتورة أميرة علي مداح التي تابعت مسيرة الدراسة منذ اختيار الموضوع ووضع الخطة، ولم تدخر وسعاً في توجيهي والمراجعة المتواصلة لي، وتقديم النصح والإرشاد، والتقويم الذي أنار طريقي في البحث فلها مني كل الشكر والتقدير على ما بذلته من جهد ووقت، ولا أنسى أن أتقدم بجزيل الشكر

والعرفان لأخي سليم وأختي نهله على دعمهما لي ومساعدتي المتواصلة لإخراج الدراسة بهذا الشكل، واجتياز الصعاب والعقبات.

وأعُرب عن شكري لأرشيف رئاسة الوزراء باستانبول، وأرشيف طوب قابي سراي، والمكتبة السليمانية، ومكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، ومركز الملك فيصل الإسلامي بالرياض، وكل من قدم لي المساعدة سواء بالكلمة والتشجيع أم بالمعلومة المفيدة.

راجية من الله تعالى أن يكون هذا العمل المتواضع إسهامًا علميًا يستفيد منهُ المتخصصون في مجال التاريخ الحديث والتاريخ العثماني.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،

أماني الغازي

١٤٣٢هـ-٢٠١١م